الفصل الثاني عشر

النثر الجاهلي

١

صور النثر الجاهلي

حين نتحدث عن النثر الجاهلي ننحي النثر العادي الذي يتخاطب به الناس في شئون حياتهم اليومية، فإن هذا الضرب من النثر لا يعد شيء منه أدبًا إلا ما قد يجري فيه من أمثال، إنما الذي يعد أدبًا حقًا هو النثر الذي يقصد به صاحبه إلى التأثير في نفوس السامعين والذي يحتفل فيه من أجل ذلك بالصياغة وجمال الأداء، وهو أنواع، منه ما يكون قصصًا وما يكون خطابة وما يكون رسائل أدبية مجرة. ويسمى بعض الباحثين النوع الأخير باسم النثر الفني.

وليس بين أيدينا وثائق جاهلية صحيحة تدل على أن الجاهليين عرفوا الرسائل الأدبية وتداولوها، وليس معنى ذلك أنهم لم يعرفوا الكتابة، فقد عرفوها، غير أن صعوبة وسائلها جعلتهم لا يستخدمونها في الأغراض الأدبية الشعرية والنثرية، ومن ثم استخدموها فقط في الأغراض السياسية والتجارية(١). ولا ينقض ذلك ما جاء في السيرة النبوية من أن سويد بن الصامت قدم مكة حاجًا أو معتمرًا.. فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما الذي معك؟ قال: مجلة لقمان، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أعراضها علي، فعرضها عليه؛ فقال له: إن هذا لكلام حسن. والذي معي أفضل من هذا: قرآن أنزله الله علي، هو هدىً ونور، فتلا عليه رسول الله القرآن، ودعاه إلى الإسلام فلم يبعد منه، وقال: إن هذا القول حسن(٢)..."

---

(١) أنظر الفن ومذاهبه في النثر العربي (الطبعة الثالثة بدار المعارف) ص١٩.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (طبعة لحلبي) ٢/ ٦٨.

obeikandi.com

وهذا الخبر إنما يفيد أنه كان عندهم صحيفة بها بعض أمثال وحكم مما كانوا ينسبونه إلى لقمان، ووجود مثل هذه الصحيفة لا يدل على أنهم استخدموا الكتابة في التعبير عن وجدانهم نثرًا وشعرًا، فقد كانت محدودة الانتشار بينهم، ومن التعسف أن نزعم ذلك لمجرد الظن، بينما تنقصنا أو تعوزنا النصوص الحسية. وإذا كنا نفتقد الأدلة المادية على وجود رسائل أدبية في العصر الجاهلي فمن المحقق أنه وُجدت عندهم ألوان مختلفة من القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهان. ومن المؤكد أنهم كانوا يشغفون بالقصص شغفًا شديدًا. وساعدتهم على ذلك أوقات فراغهم الواسة في الصحراء، فكانوا حين يرخى الليل سدوله يجتمعون للسمر، وما يبدأ أحدهم في مضرب من مضارب خيامهم بقوله: كان وكان، حتى يرهف الجميع أسماعهم إليه، وقد يشترك بعضهم معه في الحديث، وشباب الحي وشيوخه ونساؤه وفتياته المخدرات وراء الأخبية كل هؤلاء يتابعون الحديث في شوق ولهفة.

ومن غير شك كان يفيض القصاص على قصصه من خياله وفنه، حتى يبهر سامعيه، وحتى يملك عليهم قلوبهم فيحولهم من الشفقة إلى محبة الانتقام ومن الضحك إلى الجد، وعيونهم تلمع في وجوههم السمر وقلوبهم تخفف من آن إلى آن، وليس بين أيدينا شيء من أصول هذا القصص الذي كان يدور بينهم، غير أن اللغويين والرواة في العصر العباسي دونوا لنا ما انتهي إليهم منه، وطبيعي أن تتغير وتتحرف أصوله في أثناء هذه الرحلة الطويلة التي قطعتها من العصر الجاهلي إلى القرن الثاني الهجري، وإن كان من الحق أنها ظلت تحتفظ بكثير من سمات القصص القديم وظلت تنبض بروحه وحيويته.

ويمكننا بواسطة ما دونه العباسيون أن نعرف ألوان هذا القصص الذي كانوا يتناقلونه بينهم، وربما كان أكثر هذه الألوان شيوعًا على ألسنتهم أيامهم وحروبهم وما سجله أبطالهم فيها من انتصارات مروعة وما منيت به بعض قبائلهم من هزائم منكرة، وقد ظلوا يقصون هذه الأيام والحروب إلى أن تناولها منهم لغويو القرن الثاني للهجرة ورواته، فدونوها تدوينًا منظمًا على نحو ما هو معروف عن أبي عبيدة في شرحه لنقائض جرير والفرزدق، وتوالى من بعده التأليف فيها والعناية بها على نحو ما تقدم في غير هذا الموضع.

وكانوا يقصون كثيرًا عن ملوكهم من المناذرةوالغساسنة ومن سبقوهم أو عاصروهممثل ملوكالدولة الحميرية ومثل الزباء، مما نجده مبثوثًا في تاريخ الطبري وفي السيرة النبوية لابن هشام، وسقط من ذلك كثيرًا إلى أبي الفرج في أغانيه، ومن المحقق أن كثيرًا من هذا القصص يخالف التاريخ الحقيقي لهؤلاء الملوك، على نحو ما هو معروف عن قصة الزباء، فإنا لا تتفق في شيء ووثائق التاريخ الروماني الصحيحة[1] حتى اسمها وهو زنوبيا Zenobia حرف إلى الزباء، وربما جاء هذا التحريف من أن اباها كان يدعى زباي، فنسبوها إليه وقالوا بنت زباي، ومع مر الزمن حذفوا كلمة بنت، وأبدلوا الياء المتطرفة بعد الألف حسب قواعدهم الصرفية همزة، وأدخلوا على الاسم أداة التعريف فأصبحت الزباء.

وعلى نحو ما كانوا يقصون عن ملوكهم وأبطالهم كانوا يقصرن عن ملوك الأمم من حولهم وشبجعانهم، يدل على ذلك ما جاء في السيرة النبوية من أن النضربن الحارث كان من شياطين قريش وممن كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رسم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسًا، فذكر فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، فهلم إلى، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار[2]..."

ومما لا ريب فيه أنهم كانوا يقصون كثيرًا عن كهانهم وشعرائهم وسادتهم، وهو قصص استمدت منه كتب التاريخ والشعر والأدب معينًا لا ينضب من الأخبار، وارجع إلى تراجم صاحب الأغاني فستراها تحفل بمادة غنية من القصص، وقد بثوا فيها غير قليل من قصص الهوى، كقصة المرقش الأكبر وصاحبته أسماء بنت عوف، وما كان من عشقه لها وهو غلام ومحاولته خطبتها من أبيها، واعتذار الأب له بحداثة سنة وأنه لم يعرف بعد بشجاعة، وما كان من انطلاق المرقش إلى بعض الملوك ومديحه له وبقائه عنده زمنًا، وفي هذه الثناء أصاب عوفًا زمان شديد، فاتاه رجل من مراد، فأرغبه في المال، فزوجه ابنته على مائة من الإبل، ورحل بها إلى أهله. وقال إخوة

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٣/ ٩٩ وما بعدها.

(٢) السيرة النبوية (طبعة الحلبي) ١/ ٣٢١.

المرقش لا تخبروه بخيرها حين يرجع، بل قولوا له أنها ماتت، وذبحوا لذلك كبشًا، أكلوا لحمه ودفنوا عظامه، فلما قدم المرقش قالوا له إنها ماتت، ولم يلبث أن عرف الحقيقة بعد أن ظل مدة يعود قبر الكبش ويزوره. وخرج المرقش يطلب أسماء، وبعد مغامرات يتعرف على راعي زوجها، ويترسل إليه أن يحدثها عنه، فيقول له: إني لا أستطيع أن أدنوا منها، ولكن تأتيني جاريتها كل ليلة، فأحلب لها عنزًا، فتأتيها بلبنها، فقال له مرقش: خذ خاتمي هذا، فإن حلبت فألقه في اللبن، فإنها ستعرفه، وإنك مصيب بذلك خيرًا لم يصبه راع قط إن أنت فعلت ذلك، لأخذ الراعى الخاتم. ولما راحت الجارية بالقدح وحلب لها العنز طرح الخاتم فيه، فانطلقت الجارية به وتركته بين يدي أسماء. فلما سكنت الرغوة أخذته فشربته، وكذلك كانت تصنع، فقرع الخاتم نثيتها، فأخذته واستضاءات بالنار، فعرفته، فقالت للجارية: ما هذا الخاتم؟ قالت: مالي به علم. فأرسلتها إلى مولاها وهو بنجران، فأقبل فزعًا، فقال لها: لم دعوتني؟ قالت له: ادع عبدك راعي غنمك، فدعاه، فقالت: سلسله أين وجد هذا الخاتم، قال: وجدته مع رجل في كهف خبان، فقال لي: اطرحه في اللبن الذي تشربه أسماء، فإنك مصيب به خيرًا، وما أخبرني من هو، ولقد تركته بآخر رمقٍ. فقال له زوجها: وما هذا الخاتم؟ قالت: خاتم مرقش، فأعجل الساعة في طلبه. فركب فرسه وحملها على فرس آخر وساروا حتى طرقاه من ليلتهما، فاحتملاه إلى أهلها، فمات عند أسماء وقال: قبل أن يموت:

سرى ليلاً خيال مــن سليمــي ... فأرقني وأصحابــي هجــود
فبت أدير أمري كــل حــالٍ ... وأذكر أهلها وهــم بعيــد
سكن ببلــدةٍ وسكنــت أخــرى ... وقطعــت المواثــق والعهــود
فما بالي أفي ويخــان عهــدي ... وما بالــي أصــاد ولا أصيــد

ثم مات فدفن فــي أرض مــراد[1].

---

(١) أغاني طظبعة دار الكتب) ٦/ ١٢٩ وما بعدها.

ولم نسق هذه القصة مؤمنين بأنها نفس قصة المرقش التي دارت في الجاهلية بلغتها وبجميع تفاصيلها، ولكنا سقناها لندل بطوابعها على صورة أمثالها في الجاهلية، وما كان يتيح القصاص لمثلها من عناصر التشويق، تارة بما يضيف إلى القصة من خياله، وتارة بما يضيف إليها من أشعار، وقد يضيف إليها أمثالاً، على نحو ما نعرف في قصة الزباء، وهي تتضمن عند الضبى اثنى عشر مثلاً[1].

وإذا صح ما ذهب إليه بروكلمان من أن تعرف أحد العاشقين على الآخر عنطريق الخاتم شائع في كثير من الحكايات عند أمم غير العرب[2] كان معنى ذلك أن قصص الجاهليين حتى في الحب تسربت إليها عناصر من حكايات العشق المماثلة عند الأمم الأجنبية، ويدخل في هذا الجانب بعض خرافاتهم عن الحيوانات التي يلتقون فيها بخرافات الأجانب[3]، كخرافة الحية والفأس، وقد رواها الضبي على هذه الشاكلة[4]:

"زعموا أن أخوين كانا فيما مضى في إبل لهما، فأجدبت بلادهما، وكان قريبًا منهما واد فيه حية، قد حمته من كل أحد، فقال أحدهما للآخر: يا فلان لو أني أتيت هذا الوادي المكلئ، فرعيت فيه إبلي وأصلحتها، فقال له أخوه: إني أخاف عليك الحية، ألا ترى أن أحدًا لم يهبط ذاك الوادي إلا أهلكته، قال: فوالله لأهبطن. فهبط ذلك الوادي، فرعا إبله به زمانصا، ثم إن الحية لدغته، فقتلته. فقال أخوه: ما في الحياة بعد أخي خير، ولأطلبن الحية فأقتلها أو لأتبعن أخي. فهبط ذلك الوادي، فطلب الحية ليقتلها، فقالت: ألست ترى أني قتلت أخاك، فهل لك في الصلح، فأدعك بهذا الوادي، فتكون به، وأعطيك ما بقيت دينارًا في كل يوم. قال: أفاعلة أنت؟ قالت: نعم، قال: فإني أفعل. فحلف لها وأعطاها المواثيق، لا يضيرها. وجعلت تعطيه كل يوم دينارًا، فكثر ماله ونمت إبله، حتى كان من أحسن الناس حالاً. ثم إنه ذكر أخاه، فقال: كيف ينفعني العيش، وأنا أنظر إلى قاتل أخي فلان؟. فعمد إلى فأس، فأحدها، ثم قعد لها، فمرت به، فتبعها، فضربها فأخطأها،

---

(١) أمثال العرب للمفضل الضبي (الطبعة الأولى بالقاهرة) ص٨١ وما بعدها.

(٢) أ،ظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١/ ١٠٢.

(٣) أنظر كتاب الأمثال في النثر العربي القديم لعبد المجيد عابدين ص٤٢.

(٤) أمثال العرب للضبي ص١٠٦.

ودخلت الجحر، فرمى الفأس بالجبل فوقع فوق جحرها، فأثر فيه. فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذي كانت تعطيه، ولما رأي ذلك تخوف شرها وندم، فقال لها: هل لك في أن نتواثق (نتعاهد) ونعود إلى ما كنا عليه، فقالت: كيف أعاهدك؟ وهذا أثر فأسك وأنت فاجر، لا تبالي العهد. فكان حديث الحية والفأس مثلاً مشهورًا من أمثال العرب، قال نابغة بني ذبيان (من قصيدة يعاتب بها بني مرة):

وأني لألقى من ذوي الضغن منهــم ... بلا عثرة، والنفس لابــد عاثــره

كما لقيت ذات الصفا من حليفهــا ... وما انفكت الأمثال في الناس سائــره

وينشد الضبي بقية القطعة التي يتحدث فيها النابغة عن قصة الحية مع هذا الراعي الذي اختان عهده. ونحن نشك في الأبيات كما نشك في أن القصة حافظت على الأصل الجاهلي، وإن كنا في الوقت نفسه نظن ظنًا أنها تعطينا جانبًا من روح القصص الجاهلين وأنه كان يلتقي في بعض جوةانبه بقصص الحيوان المعروف عند الهنود، والذي تسرب منهم إلى الأمم الأخرى على نحو ما نعرف في قصص إيسوب اليوناني، وبين قصصه الزارع والحية[1]، وكأنما تسرب هذا النوع من الهند إلى العرب واليونان جميعًا.

ومما لا شك فيه أن عرب الجاهلية قصوا كثيرًا عن الجن والعفاريت والشياطين، وقد زعموا أنها تتحول في أي صورة شاءت إلا الغول فإنها دائمًا تبدو في صورة امرأة عدا رجليها، فلابد أن تكونا رجلي حمار. وكثيرًا ما تتراءى الجن في صورة الثيران والكلاب والنعام والنسور. وكانوا يزعمون أن أهم منازلها أرض وبار وصحراء الدهناء ويبرين. ومن غير شك دخل كثير من قصصهم عنها في كتب الأساطير والعجائب التي ألفت في العصر العباسي.

ونحن لم نسق ذلك لنؤكد أنه بقيت لنا من القصص الجاهلي بقية صالحة للدراسة، فإن شيئًا من هذا القصص الذي يضاف إلى الجاهليين لم يصلنا مدونًا مكتوبًا، ولذلككنا نتهمه جملة، وإن كنا بعد هذا الاتهام نعود فنزعم أنه يصور لنا مادة قصصهم وروحه وطبيعته وكثيرًا من ملامحه، ولكن لا بصورة دقيقة، وإنما بصورة عامة.

---

(١) أنظر الأمثال في النثر العربي القديم ص٤٣

٢

الأمثـال

إذا كان القصص الذي اضيف إلى الجاهلين لا يحمل لنا صورة دقيقة للنثر الجاهلي بحكم تأخره في التدوين فإن الأمثال تحمل لنا غير قليل من هذه الصورة، إذ أن من شأنها أن لا تغير، وأن تظل طويلاً بصورتها الأصلية، بحكم إيجازها وكثرة دورانها على الألسنة. وقد سارع العرب إلى تدوينها منذ أواسط القرن الأول للهجرة، إذ ألف فيها صحار العبدى أحد النسابين في أيام معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ) كتابًا كما ألف فيها عبيد بن شرية معاصره كتابًا آخر، ويقول صاحب الفهرست إنه رآه في نحو خمسين ورقة(١). وإذا انتقلنا إلى القرن الثاني وجدنا التأليف في الأمثال يكثر، إذ أخذ علماء الكوفة والبصرة جميعًا يهتمون بها ويؤلفون فيها، وقد وصلنا عن هذا القرن كتاب أمثال العرب للمفضل الضبي، ونمضي إلى القرن الثالث، فيؤلف أبو عبيد القاسم بن سلام فيها كتابًا يشرحه من بعده أو عبيد البكري باسم "فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام". وما تزال المؤلفات في الأمثال تتوالى، حتى يؤلف أبو هلال العسكري كتابه "جمهرة الأمثال" ويخلفه الميداني، فيؤلف كتابه "مجمع الأمثال" وهو يقول في مقدمته إنه رجع فيه إلى ما يرو على خمسين كتابًا.

ومن يرجع إلى هذه الكتب يجدهم يسوقون الكلمة السائرة التي تسمى مثلاً، ولا يكتفون بذلك، بل يقفون غالبًا لسرد القصة أو الأسطورة التي تمخض عنها المثل، وقد تتمخض عن أمثال أخرى فتروي في تضاعيفها. وموقفنا من هذه الأقاصيص والأساطير لا يختلف عن موقفنا من القصص الجاهلي بعامة، فنحن لا نتخذ منها صورة للنثر الجاهلي وإن اختلجت بروحه وطبيعته وحيويته، لنفس السبب الذي ذكرناه، وهو تأخر تدوينها. أما الأمثال نفسها فمن المحقق أن طائفة كبيرة مما روته الكتب السالفة يتحتم أن تكون جاهلية، وخاصة أكثر ما رواه عبيد ابن شرية، ولو أن كتابه لم يسقط من يد الزمن ووصلنا لاطمأننا إلى ما يرويه من هذه الأمثال، غير أنه فقد. ولم يحاول من جاءوا بعده أن يفردوا الأمثال الجاهلية من الإسلامية، إذ درج أكثرهم على ترتيب

(١) الفهرست ص١٣٢.

الأمثال حسب الحروف الأولى على نحو ما ترتب المعاجم ألفاظها، فهم يرتبونها أو يؤلفانها في تسعة وعشرين بابًا بعدد أبواب الحروف الهجائية. وبذلك أصبح من الصعب تمييز جاهليها من إسلاميها في كثير من الأحيان، ومع ذلك قد يورد أصحاب هذه الكتب مع ما يروونه من الأمثال إشارات تدل على جاهليتها وقدمها، وهي تتخذ عندهم طريقين: الطريق الأول أن يسوقوا مع المثل قصة جاهلية تفسره، أو أن يساق هو في أثناء قصة جاهلية، كتلك الأمثال التي نقرؤها في قصة الزباء من مثل: "لا يطاع لقصير أمر" و "لأمرٍ ما جدع قصير أنفه" و "بيدي لا بيد عمرو" وقد بلغت أمثال هذه القصة عند الميداني ثمانية عشر مثلاً. ومن هذا الطريق ما يتصل بأحداث أو أساطير جاهلية كالذي زعموا أن النعمان بن امرئ القيس اللخمي ابتنى قصرًا له يسمى الخورنق، بناه له رومي يسمى سنمار، فلما أتمه قال له سنمار: إني أعرف موضع آجرة لو زالت لسقط القصر كله، فقال النعمان: ايعرفها أحد غيرك؟ فقال: لا، فقال: لا جرم لأدعنها وما يعرفها أحد، ثم أمر به فرمى من أعلى القصر إلى أسلفه فتقطع، فضرب به الجاهليون المثل فقالوا: جزاء سنمار.

وأما الطريق الثاني فهو ابن ينسبوا المثل إلى جاهليين، فحينئذ يتعين زمنه وتاريخه، وهناك كثيرون اشتهروا فيهم بالحكمة والأمثال السائرة، ومنهم من يغرق في القدم مثل لُقمان عاد، تلك القبيلة اليمنية التي كانت تنزل في الأحقاف، والتي بادت ولم تبق منها باقية في الجاهلية، وقد ظل اسم لقمان يدور على ألسنة شعرائهم[1] وظلوا يذكرونه بالحكمة والبيان والحلم. يقول الجاحظ: "من القدماء ممن كان يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنكراء لقمان عاد" وينص على أنه غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن الكريم[2] كما ينص على ذلك المفسرون[3]. ولقدم لقمان حفت الأسطورة به وبحياته وكل ما يتصل بصلاته مع الناس والنساء. فقال الأخباريون إنه كان عملاقًا كبير الراس قويًا قوة خارقة حكيما حكمة بالغة، وقالوا إنه عاش عمر سبعة نسورٍ وأن كل نسر منها عاش ثمانين سنة وكان لبد آخرها، وبه ضربوا المثل في طول العمر

(١) البيان والتبيين ١/ ١٨٣ وما بعدها. و٣/ ٣٠٤.

(٢) البيان والتبيين ١/ ١٨٤.

(٣) قصص الأنبياء للثعلبي (طبعة القاهرة) ٣٤٠ وتفسير أبي حيان ٧/ ١٨٦ وأنظر خزانة الأدب للبغدادي ٢/ ٧٧.

فقالوا "اطال الأبد على لبد"[1]. متأخرة طائفة من الأقاصيص أريد بها إلى العظة والاعتبار، وسميت أمثال لقمان، وهي مكتوبة بأسلوب ركيك ضعيف. وقد زعم هلر "Heller" كاتب مادة لقمان في دائرة المعارف الإسلامية أن شخصية لقمان مرت بثلاث مراحل:

مرحلة جاهلية وفيها يتراءى لقمان عاد الأسطوري الذي يقال إنه عاش عمرو سبعة نسور وكلما هلك منها نسر خلفه نسر آخر، حتى كان لبد الذي ذكره شعراؤهم كثيرًا.

مرحلة قرآنية، وفيها نجد للقمان سورة خاصة به في الذكر الحكيم وقد ربط بعض المفسرين بين لقمان هذا وبين بلعام حكيم بني إسرائيل فسردوا له نفس نسبه إذ قالوا إنه لقمان بن باعور[2] بن ناحور ابن تاريخ.

مرحلة متأخرة، وهي مرحلة نُسج فيها ولفق قصص كثير حول لقمان كما يصور ذلك كتاب "أمثال لقمان".

ومن المحقق أن "هلر" مخطئ فيما ذهب إليه من هذا التطور لشخصية لقمان، لسبب بسيط، وهو ما قلناه من أن قدماءنا فرقوا بين لقمان عاد ولقمان القرآن الكريم، فهما ليسا شخصًا واحدًا بل هما شخصان. وبينما تعني بالأول كتب الأمثال نجد الثاني تعني به وبوصاياه كتب الفقه والتفسير مثل موطأ مالك وتفسير أبي حيان، وقد روى الجاحظ طرفًا من تعاليمه، وهي تطبع بطابع ديني[3].

واشتهر في الجاهلية بينهم كثيرون بهذا اللون من الأمثال وما يتصل بها من حكم، يقول الجاحظ: "ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أكثم بن صيفي وربيعة بن حذار وهرم بن قطبة وعامر بن الظرب ولبيد بن ربيعة"[4] وأحكمهم أكثم بن صيفي التميمي وعامر بن الظرب العدواني، فأما أكثم فكان من المعمرين[5]، ويقال إنه لحق الإسلام وحاول أن يعلن إسلامه فركب

---

(١) أنظر المعمورين للسجستاني ص٣ وأخبار عبيد بن شرية ص٣٥٦ والخزانة ٢/ ٧٧ والميداني ١/ ٣٧٥.

(٢) أنظر الثعلبي ٣٤٠ وتفسير أبي حيان ٧/ ١٨٦.

(٣) البيان والتبيين ٢/ ١٤٩.

(٤) البيان والتبيين ١/ ٣٦٥.

(٥) أنظر في أكثم المعموبين للسجستاني ص١٠ والأغاني (طبعة الساسي) ١٥/ ٧٠ ومجمع الأمثال ٢/ ١٤٥ وجمهرة الأمثال للعسكري على هامشه ١/ ١٢٠.

obeikandl.com

متوجهًا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، غير أنه مات في الطريق. وتدور على لسانه حكم وأمثال كثيرة، وقد ساق السيوطي في المزهر طائفة منها نقلاً عن ابن دريد في أماليه، وهي تجرى على هذا النسق(١):

"رب عجلةٍ تهب ريثًا(٢). ادرعوا الليل فإن الليل أخفي للويل. المرء يعجز لا محالة. لا جماعة لمن اختلف. لكل امرئ سلطان على أخيه حتى يأخذ السلاح، فإنه كفي بالمشرفية واعظًا. أسرع العقوبات عقوبة البغي. شر النصرة التعدي. آلم الأخلاق اضيقها. اسوأ الآداب سرعة العقاب. رب قول أنفذ من صول(٣). الحرحر وإن مسه الضر. العبد عبد وإن ساعده الجد(٤). إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد. رب كلام ليس فيه اكتتام. حافظ على الصديق ولو في الحريق. ليس من العدل سرعة العذل. ليس بيسير تقويم العسير. إذا بالغت في النصيحة هجمت بك على الفضيحة. لو أنصف المظلوم لم يبق فينا ملوم. قد يبلغ الخضم بالقضم(٥). استأن أخاك فإن مع اليوم غدا. كل ذات بعل ستئيم(٦). الحر عزوف. لا تطمع في كل ما تسمع".

وعامر مثل أكثم يدخل في المعمرين(٧)، ويقال إنه "لما أسن واعتراه النسيان أمر ابنته أن تقرع بالعصا إذا هوفه(٨). عن الحكم وجار عن القصد. وكانت من حكيمات العرب حتى جاوزت في ذلك مقدار صحر بنت لقمان وهند بنت الخس وجمعة بنت حابس.. وقال المتلمس في ذلك:

لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا ... وما علم الإنسان إلا ليعلما(٩)"

(١) المزهر للسيوطي (طبعة الحلبي) ١/ ١.

(٢) الريث: البطء أي رب عجلة تفوت على صاحبها حاجته.

(٣) الصول: الاستطالة في الحرب.

(٤) الجد: الحظ.

(٥) الخضم: الأكل ملء الفم. القضم: الأكل بأطراف الأسنان.

(٦) تئيم: يهلك عنها الزوج.

(٧) أنظر المعمرين ص٤٤ وأمثال الميداني في المثل: إن العصا قرعت لذى الحلم.

(٨) فه: حاد وجار وانحراف.

(٩) البيان والتبيين ٣/ ٣٨.

وكان مثل أكثم حكمًا للعرب تحتكم إليه، وافتخر بذلك ذو الإصبع العدواني في بعض شعره فقال[1]:

ومنـا حكـم يقضـي فلا ينقض مـا يقضـي

وتنسب إليه حكم ووصايا كثيرة لقومه[2].

وأكثر حكمهم وأمثالهم لا يعينون قائلها، وهذا طبيعي لأنها تنبعث غالبًا من أناس مجهولين من عامة القبائل، ممن لا يمجدون ولا يحفل بهم الناس، وهم أيضًا لا يحفلون بأنفسهم لأنهم من العامة، والعامة عادة لا يهتمون بنسبة فضل إليهم. ولابد أن نلاحظ أن بعض أمثالهم يخفي المعنى المراد منه. ومن أجل ذلك كان لا يفهم إلا بالرجوع إلى كتب الأمثال، كقولهم: "بعينٍ ما أرينك" فإن معناه: أسرع، وهو معنى لا يتبادر إلى السامع من مظاهر اللفظ، ومن ثم علق عليه أبو هلال العسكري بقوله: "هو من الكلام الذي قد عرف معناه سماعًا من غير أن يدل عليه لفظه[3]". ولابد أن نلاحظ أيضًا أن الأمثال لا تتغير، فتقول: "الصيف ضيعت اللبن"[4] بكسر التاء إذا خاطبت الواحد والواحدة والاثنين والاثنتين والجماعة. ومن ثم كانوا يستجيزون في المثل مخالفة النحو وقواعد التصرف والجمع، ففي أمثالهم: "أعط القوس باريها"[5] بتسكين الياء في باريها والقياس فتحها، وفيها أيضًا: "أجناؤها أبناؤها" جمع جان وبان، والقياس: "جناتها بناتها" لأن فاعلاً لا يجمع على أفعال.

وإذا كانت بعض الأمثال تخالف نظام التصريف والنحو فإن الكثرة الكثيرة لا تشذ على هذا النظام، بل إن طائفة منها تدخل في الصياغة الجاهلية البليغة، إذ نطق بها بعض بلغائهم رفصحائهم من أمثال أكثم بن صيفي وعامر بن الظرب، وكان خطباؤهم المفوهون كثيرًا ما يعمدون إلى حشدها في خطباتهم، يقول الجاحظ: "كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال

---

(١) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣/ ٩٠.

(٢) البيان والتبيين ١/ ٤٠١، ٢/ ١٩٩.

(٣) جمهرة الأمثال للعسكري على هامش مجمع الأمثال للميداني ١/ ١٦٨.

(٤) يضرب هذا المثل لمن يطلب حاجته بعد فوت أوانها.

(٥) أي استعن على ما تعمل بأهل الحذق والمهارة.

obeikandl.com

سائرة، ولم يكن الناس جميعًا ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع[1]" وتبع شعراؤهم خطباءهم يودعونها أشعارهم. ومن ثم كنا نجد كثيرًا منها يتم له لحنه الموسيقى، فإذا هو شطر أو بيت. وكثيرًا ما نلاحظ في بعض عباراتها احتفالاً بتوازن الكلمات توازنًا ينتهي بها إلى السجع كما نلاحظ في بعض جوانبها اهتمامًا بالتصوير، ومن أجل ذلك يقول النظام إنها "نهاية البلاغة لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة الكناية[2]".

واقرأ هذه الأمثال:

تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها[3].- المقدرة تذهب الحفيظة- مقتل الرجل بين كفيه[4].- إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه- من استرعى الذئب ظلم- في الجريرة تشترك العشيرة[5]- وقد يأتك بالأخبار من لم تزود[6]- كذي العر يكوى غيره وهو راتع [7]- استنوق الجمل [8]- كالمستجير من الرمضاء بالنار [9]- حلب الدهر اشطره[10]- يخبط خبط عشواء [11]- المنية ولا الدنية[12]- تحت الرغوة اللبن الصريح[13]- هدنة على دخن [14] - رمتنى بدائها وانسلت.

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٧١.

(٢) مجمع الأمثال ١/ ٥.

(٣) يضرب في صيانة الرجل الكريم نفسه عن المكاسب الحسية.

(٤) بين فكيه: أي لسانه وما يتكلم به.

(٥) الجريرة: الجناية.

(٦) شطر بيت لطرفة.

(٧) شطر بيت للنابغة.

(٨) اشتنوق: أصبح ناقة. يضرب مثلاً لمهن يظهر أن عنده رأيًا ثم يتضح عجزه.

(٩) الرمضاء: الأرض شديدة الحرارة.

(١٠) أشطره: الأشطر: أخلاف الناقة، يضرب مثلاً لمن عرك الدهر.

(١١) الشعراء: الناقة ضعيفة البصر، يضرب مثلاً في التعثر.

(١٢) الدنية: العمل الدنيء.

(١٣) الصريح: الخالص.

(١٤) دخن: حقد.

فإنك تحس جمال الصياغة وأن صاحب المثل قد يعمد إلى ضرب من التنغيم الموسيقي للفظه، فإذا هو يسجع فيه أو إذا هو ينظمه شطرًا من بيت. وقد يعمد إلى ضرب من الأخيلة، ليجسم المعنى ويزيده حدة وقوة. والحق أن كل شيء يؤكد أن العرب في الجاهلية عنوا بمنطقهم واستظهار ضروب من الجمال فيه، سواء ضربوا أمثالهم أو تحدثوا أو خطبوا، وقد وصفهم جل وعز وأوصف فريقًا منهم بقوله: "ولتعرفنهم في لحن القول" وقوله: "ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا". وكأنما أصبحت المقدرة البيانية عندهم سليقة من سلائقهم، ولذلك لم يكن عجباً أن تكون آية الرسول صلى الله عليه وسلم على صدق رسالته معجزة بلاغية لا يستطيعون أن يجاروها هي القرآن الكريم. "وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد".

obeikandl.com

٣

الخطابـة

ليس بين أيدينا نصوص وثيقة من الخطابة الجاهلية، لما قلناه من بعد المسافة بين العصر الذي قيلت فيه وعصور تدوينها، ولذلك كان ينبغي أن نتحرس مما رواه منها صاحب الأمالي وصاحب العقد الفريد، فأكثره أو جمهوره منحول. على أن اتهامنا لنصوصها لا ينتهي بنا إلى إنكارها على الجاهليين، بل إنه لا ينتهي بنا إلى إنكار ازدهارها كما حاول بعض الباحثين[١]، فقد كان كل شيء عندهم يؤهل لهذا الازدهار، إذ لم يكن ينقصهم شيء من الحرية، وكثرت المنازعات والخصومات بينهم والدعوة إلى الحرب مرة وإلى السرم مرة أخرى. وقد اتخذوا من مجالسهم في مضارب خيامهم ومن أسواقهم ومن ساحات الأمراء ووفاداتهم عليهم ميادين لإظهار براعتهم وتفننهم في المقال وحوك الكلام، وأسعفتهم في ذلك مكانتهم البيانية وما فطروا عليه من خلابة ولسن وبيان وفصاحة وحضور بديهة، حتى ليقول الجاحظ: "وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام.. عند المقارعة أو المناقلة أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالاً (أفواجًا) وتنثال عليه الألفاظ انثيالا.. وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر.. من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب[٢]".

وكل ذلك عمل على ازدهار الخطابة في الجاهلية، وأن تتناول أغراضًا مختلفة، فقد استخدموها في منافراتهم ومفاخراتهم بالأحساب والأنساب والمآثر والمناقب، كمنافرة علقمة بن علاثة وعامرين الطفيل إلى هرم بن قطبة الفزاري[٣] ومنافرة القعقاع بن معبد التميمي وخالد بن مالك

---

(١) في الأدب الجاهلي لطه حسين ص٣٧٤.

(٢) البيان والتبيين ٣/ ٢٨.

(٣) أغاني (ساسي) ١٥/ ٥١.

obeikandl.com

النهشلي إلى ربيعة بن حذار الأسدي[1]. واستخدموها في الحض على القتال وبعث الموجدة في نفوس قبائلهم ودفعها إلى نيران الحرب وتراميهم في أوارها كأنهم الفراش، يقول أبو زبيد الطائي[2]:

وخطيــبٍ إذا تمعــرت الأو ... جـه يوًا في مأقطٍـ مشهــود[3].

ويقول عامر المحاربي في مديح قومه[4]:

وهم يدعمون القول في كل موطـنٍ ... بكل خطيبٍ يترك القوم كظمــا[5].

يقوم فلا يعيا الكلام خطيبنــا ... إذا الكرب أنس الجبس أن يتكلمــا[6]

وكما كان يدعو خطباؤهم إلى الحرب وسفك الدماء كانوا يدعون إلى الصلح وإصلاح ذات البين وأن تضع الحرب أوزارها، يقول ربيعة بن مقروم الضبي[7]:

ومتى تقم عند اجتماع عشيــرةٍ ... خطباؤنا بين العشيــرة يفصــل

وكانوا كثيرًا ما يخطبون في وفادتهم على الأمراء، إذ يقف رئيس الوفد بين يدى الأمير من الغساسنة أو المناذرة، فحييه، متحدثًا بلسان قومه، وفي السيرة النبوية ما يصور جانبًا من هذه الوفود، إذ وفد كثير منها على الرسول منذ السنة الثامنة، وكان يقوم خطيب الوفد بين يديه متحدثًا، ويرد عليه خطيب الرسول على نحو ما هو معروف عن وفد تميم وخطبة عطارد بن

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٢٧٢.

(٢) البيان والتبيين ١/ ١٧٦.

(٣) تمعرت الوجوه: تغيرت وأصفرت المأقط: موضع القتال.

(٤) المفضليات، القصيدة ٩١.

(٥) كظمًا: جمع كاظم وهو الساكت غيظًا.

(٦) الجبس: اللئيم المنقطع.

(٧) أغاني (سامي) ٩/ ٩٣١.

حاجب بن زرارة بين يديه[١]. وكان ذلك سنة شائعة بينهم في الجاهلية حين يفدون على الأمراء أو على من له رياسة وسيادة. يقول أوس بن حجر في رثاء فضالة بين كلدة[٢]:

أبادليجة من يكفي العشيـرة إذ   أمسوا من الخطب في نارٍ وبلبـال

أم من يكون خطيب القوم إذ حفلـوا   لدى الملوك ذوي أيد وأفضـال[٣].

وقد ينبرون في الأسواق العظام ينصحون قومهم ويرشدونهم، على نحو ما هو معروف عن قس وخطبته بسوق عكاظ، وربما نصح الخطيب عشيرته وقومه الأقربين، كبعض ما يروى عن عامر بن الظرب وأكثم بن صيفي. وكان من عاداتهم في الزواج، وخاصة زواج أشرافهم وأبنائهم أن يتقدم عن الخطب سيد من عشيرته، يخطب باسمه الفتاة التي يريد الاقتران بها، وخطبة أبي طالب السيدة خديجة للرسول صلى الله عليه وسلم مشهورة، ويقول الجاحظ: "كانت خطبة قريش في الجاهلية- يعني خطبة النساء-: باسمك اللهم ذكرت فلانة، وفلان بها مشغوف، باسمك اللهم، لك ما سألتن ولنا ما أعطيت[٤]. ويقول كان من عادة العرب في هذه الخطبة أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب[٥]، ويتحدث عن خطباتهم عامة فيقول: "أعلم أن جميع خطب العرب من أهل المدرو والوبر والبدو والحضر على ضربين منها الطوال، ومنها القصار، ولكل ذلك مكان يليق به وموضع يحسن فيه. ومن الطوال ما يكون مستويًا في الجودة، ومتشاكلاً في في استواء الصنعة، ومنها ذوات الفقر الحسان والنتف الجياد.. ووجدنا عدد القصار أكثر ورواة العلم إلى حفظها أسرع[٦]".

وليس كل ما يدل على ازدهار الخطابة في الجاهلية ما رأيناه آنفًا من تعدد أنواعها وخوضها في أغراض مختلفة من المصاهرة أو الوفادة على الأمراء أو النصح والإرشاد أو الدعوة إلى الحرب أو

---

(١) تاريخ الطبري، القسم الأول ص١٧١١. والأغاني (طبعة دار الكتب) ٤/ ١٤٦.

(٢) نقد الشعر لقدامة (طبعة الجوائب) ص ٣٥ وديوان أوس (طبعة بيروت) ص١٠٣.

(٣) أيد: قوة.

(٤) البيان والتبيين ١/ ٤٠٨.

(٥) البيان والتبيين ١/ ١١٦.

(٦) البيان والتبيين ٢/ ٧.

الكف عن القتال أو في المنافرات والمفاخرات، فقد استقر في نفوس العباسيين وعلى رأسهم الجاحظ أنهم كانوا يكثرون من الخطب وأن قبيلة من القبائل بل عشيرة من العشائر لم تكن تخلو من خطيب، وهو يسوق في البيان والتبيين أثباتًا طويلة بأسمائهم ومواقفهم موردًا من حين إلى حين فقرًا وشظايا من أقوالهم. ولعل من الخير أن نعرض أطرافًا من ذلك، حتى تتضح لنا هذه النهضة الخطابية عندهم من بعض وجوهها، وخاصة أننا لا نطمئن إلى ما يروي لهم في كتب الأدب والتاريخ من خطب، ومن ثم سنعمد عمدًا إلى سرد أسماء خطبائهم من جهة وإنشاد بعض الأشعار التي تصور بيانهم وبراعتهم في هذا اللون من ألوان نثرهم، لما هو معروف من أن الشعر يمكن أن ينقل عن طريق الرواية آمادًا من الأزمنة بفضل ما فيه من موسيقى تحفظه من الاضطراب على ألسنة الرواة وتحول بينه وبين دخول خلل واسع في صوره الأصيلة.

وإذا رجعنا نستعرض أسماء خطبائهم وجدنا البيان والتبيين يموج بهم، من مثل قيس بن شماس في يثرب، وابنه ثابت وهو خطيب النبي صلى الله عليه وسلم ومن خطباء الأنصار أيضًا سعد بن الربيع، وهو الذي اعترضت ابنته النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لها: من أنت؟ قالت: ابنة الخطيب النقيب الشهيد سعد ابن الربيع(١). أما مكة فمن قدماء خطبائها هاشم وأمية ونفيل بن عبد العزى جد عمرو بن الخطاب، وإليه تنافر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية(٢).ويظهر أنه كان فيها خطباء كثيرون، وربما كان مما هيأ لكثرتهم وجود دار الندوة بها، وهي تشبه مجلس شيوخ مصغرًا، كانوا يجتمعون فيها ويخطبون ويتحاورون(٣)، وممن عرف فيها بالخطابة عتبة بن ربيعة وسهيل بن عمرو الأعلم، وهو الذي قال فيه عمرو للرسول صلى الله عليه وسلم: "يا رسول الله!

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٥٨ – ٣٦٠.

(٢) تاريخ الطبري، القسم الأول ص١٠٩١.

(٣) السيرة النبوية (طبعة الحلبي) ٢/ ١٢٤.

obeikandl.com

انزع ثنيتيه[1] السفليين حتى يدفع[2] لسانه فلا يقوم عليك خطيبًا أبدًا" فقال الرسول عليه السلام: " لا أمثل فيمثل الله بي، وإن كنت نبيًا، دعه يا عمرو، فعسى أن يقوم مقامًا تحمده[3]".

وممن اشتهروا بالخطابة في القبائل عامر بن الظرب في عدوان وربيعة[4] بن حذار في أسد وحنظلة بن ضرر في ضبة وقد طال عمره حتى أدرك يوم الجمل[5]، وعمرو ابن كلثوم في تغلب[6] وهانئ بن قبيصة في شيبان، وهو خطيب يوم ذي قار[7]، وزهير بن جناب في كلب وقضاعه[8]، وابن عمار في طيئ، وهو خطيب مذحج كلها[9]. ومن خطبائهم لبيد بن ربيعة العامري، ومن قوله[10]:

وأخلف قسا ليتنـــي ولـــو أنني   وأعيى على لقمان حكـم التدبـر

وهيذان بن شيخ الذي قال فيه الرسول صلوات الله عليه: رب خطيب من عبس[11]، وخويلد بن عمرو والعشراء بن جابر الغطفانيان[12]، ومن خطباء غطفان أيضًا قيس بن خارجة بن سنان الذي خطب في حرب داحس والغبراء يومًا إلى الليل[13] وهرم بن قطبة الفزاري[14] الذي احتكم

---

(١) الثنيتان: الأضراس في مقدم الفم.

(٢) يدلع: يسترخي، فلا يحسن النطق.

(٣) البيان والتبيين ١/ ٣١٧.

(٤) نفس المصدر ١/ ٣٦٥ والأغاني (ساسي) ١٠/ ٦١.

(٥) نفس المصدر ١/ ٣٤١.

(٦) نفس المصدر: ٢/ ١٤١.

(٧) أغاني (ساسي) ٢٠/ ١٣٧.

(٨) نفس المصدر ٢١/ ٦٥.

(٩) البيان والتبيين ١/ ٣٤٩.

(١٠) البيان والتبيين ١٨٩.

(١١) البيان والتبيين ١/ ٢٧٣.

(١٢) نفس المصدر ١/ ٣٥٠.

(١٣) البيان والتبيين ١/ ١١٦.

(١٤) البيان والتبيين ١/ ٣٦٥.

obeikandl.com

إليه علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل، فقال لها- كما مر بنا-: "أنتما كركبتي البعير الأدرم (الفحل) تقعان على الأرض معًا[1]".

ومن خطباء تميم المفوهين أكثم بن صيفي وضمرة بن ضمرة، ويري أنه لما دخل على النعمان بن المنذر زري عليه للذي رأي من دمامته وقصره وقلته، فقال للنعمان: "تسمع بالمعيدي لا أن تراه" فقال: "أبيت اللعن! "إن الرجال لا تكال بالقفزان[2] ولا توزن بالميزان، وليست بمسوكٍ[3] يستقي بها، وإنما المرء بأصغريه: بقلبه ولسانه، إن صال صال بجنان، وإن قال قال ببيان[4]". ومن خطباء تميم أيضًا عطارد بن حاجب بن زرارة وهو خطيب وفدها، كما مر بنا بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم، ومنهم عمرو بن الأهتم المنقري، ولم يكن في بادية العرب في زمانه أخطب منه[5]، ويروي أن الرسول سأله عن الزبرقان بن بدر فقال "مانع لحوزته، مطاع في أدنيه" فقال الزبرقان: "أما إنه قد علم أكثر مما قال، ولكنه حسدني شرفي" فقال عمرو: "أما لئن قال ما قال، فوالله ما علمته إلا ضيق الصدر، زمر[6] المروءة، لئيم الخال، حديث الغني. فلما رأي أنه قد خالف قوله الآخر قوله الأول ورأي الإنكار في عيني رسول الله قال: "يا رسول الله! رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت، وما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الآخرة" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: "إن من البيان لسحرًا[7]". ومن خطباء بني منقر التميميين أيضًا قيس بن عاصم الذي قال فيه الرسول صلوات الله عليه حين رآه: هذا سيد أهل الوبر[8]، وهو الذي قال فيه عبدة بن الطبيب حين مات[9]:

---

(١) أغاني (ساسي) ١٥/ ٥١.

(٢) القفزان: جميع قفيز، وهو مكيال عراقي.

(٣) المسوك: جمع مسك وهو الجلد.

(٤) البيان والتبيين ١/ ١٧١.

(٥) البيان والتبيين ١/ ٣٥٥.

(٦) زمر: قليل.

(٧) البيان والتبيين ١/ ٥٣.

(٨) البيان والتبيين ٢/ ٣٣.

(٩) البيان والتبيين ٢/ ٣٥٣.

وما كان قيس هلكه هلك واحدٍ ولكنه بنيان قومٍ تهدما

ومن خطباء إياد قس بن ساعدة، وهو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول: أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت(١). ويقول الجاحظ: "ولإياد خصلة ليست لأحد من العرب، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي روى كلام قس بن ساعدة وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته، وهو الذي رواه لقريش وللعرب، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه. وهذا إسناد تعجز عنه الأماني وتنقطع دونه الآمال(٢)". على أن ابن حجراتهم هذا الإسناد(٣)، وخاصة بعد توسع الرواة في خطبة قس وتحميلهم لها إشارات بقرب مبعث الرسول عليه السلام، ومما لا ريب فيه أن لها أصلاً صحيحًا تزيد فيه الرواة.

وواضح أن هذه كثرة من الخطباء الجاهليين، إن لم يصح ما أثر عنهم من خطب فإن من المحقق أنهم خطبوا كثيرًا في أقوامهم وقبائلهم وإلا ما اشتهروا بالبراعة في هذا اللون من ألوان اللسن والبيان. وكان مما بعثهم على إحسانه حاجتهم إليه في مواطن ومواقف عدة، وكان قلما يرتفع نجم سيد من سادتهم إلا والخطابة صفة من صفاته وسجية من سجاياه، حتى تساق له القلوب بأزمتها وتُجمع له النفوس المختلفة من أقطارها. وكل شيء يؤكد أن منزلة الخطيب عندهم كانت فوق منزلة الشاعر، فهي قرين السؤدد والشرف والرياسة، يقول أبو عمرو بن العلاء: "كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم، ويفخم شأنهم، ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم، ويخوف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم، فيراقب شاعرهم. فلما كثر الشعراء والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السرقة وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر(٤)". وعلى هدى هذا القول مضى الجاحظ يقول: "كان الشاعر أرفع قدرًا من الخطيب، وهم إليه أحوج لرده مآثرهم عليهم

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٠٨.

(٢) نفس المصدر ١/ ٥٢.

(٣) السيرة الحلبية (طبعة مصر) ١/ ٢١٠ وقارن بالآلئ المصنوعة للسيوطي ١/ ٩٥.

(٤) البيان والتبيين ١/ ٢٤١.

obeikandl.com

وتذكيرهم بأيامهم، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدرًا من الشاعر[1]". وربما كان من أسباب ذلك أن الشاعر – إذا استثنينا زهيرًا – كان هو الذي يهيج النفوس للحرب بما يدعو للأخذ بالثأر، ما الخطيب فكان غالبًا يدعو إلى السلم وأن تضع الحرب بين القبائل المتخاصمة أوزارها، وكثيرًا ما يقف من قومه موقف الناصح الأمين يهديهم ويرشدهم، أما الشاعر فأكثر مواقفه هجاء وتنابذ بالألقاب والأحساب والمآثر والمعايب.

وقد تعارف خطباؤهم على جملة من السنن والتقاليد في خطابتهم، فكانوا يخطبون على رواحلهم في الأسواق العظام والمجامع الكبار[2]، وقد لاثوا العمائم على رؤوسهم، وفي أثناء خطابتهم كانوا يمسكون بالعصى والمخاصر والقضيان والقنا والقسى راكبين أو واقفين على مرتفع من الأرض، وأشار إلى ذلك لبيد إذ يقول[3]:

ما إن أهاب إذا السرادق عمه   قرع القسى وأرعش الرعديد

ووقفت الشعوبية طويلاً عند عادة خطباء العرب من اتخاذ العصى والمخاصر، ورد عليهم الجاحظ في بيانه مبينًا فوائد العصا، ومن قوله في تلك العادة: "إن حمل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة والتهيؤ للأطناب والإطالة، وذلك شيء خاص في خطباء العرب ومقصور عليهم ومنسوب إليهم، حتى إنهم ليذهبون في حوائجهم، والمخاصر بأيديهم إلفًا لها وتوقعًا لبعض ما يوجب حملها والإشارة بها[4]".

وكانوا يمدحون في الخطيب ثبات الجنان وحضور البديهة وقلة التلفت وكثرة الريق وجهارة الصوت وقوته، وكانوا يعيبون فيه التنحنح والارتعاش والحصر والتعثر في الكلام، يقول النمر بن تولب[5]:

---

(١) البيان والتبيين ٤/ ٨٣.

(٢) البيان والتبيين ٣/ ٧.

(٣) نفس المصدر ١/ ٣٧٢، ٣/ ٩.

(٤) البيان والتبيين ٣/ ١١٧.

(٥) أنظر في هذا البيت وتاليه البيان والتبيين ١/ ٣.

obeikandi.com

أغذني رب من حصرٍ وعي | ومن نفسٍ أعالجها علاجًا

ويقول أبو العيال الهذلي:

ولا حصر بخطبته | إذا ما عزت الخطب

ودموا في الخطيب أن يكثر من مسه لذقنه وشواربه ولحيته، وكأنما رأوا في ذلك ضربًا من الخرق في استخدام الجوارح، يقول معن بن أوس المزني في بعض هجائه[1]:

إذا اجتمع القبائل جئت ردفًا | وراء الماحسين لك السبالا[2].

فلا تعطي عصا الخطباء فيهم | وقد تكفي المقادة والمقالا

وكثيرًا ما كانوا يتزيدون في جهارة الصوت وينتحلون سعة الأشداق وهدل الشفاه، ومن أجل ذلك قال الرسول صلوات الله عليه: إياي والتشادق، وقال: أبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون[3].

وإذا ذهبنا نستنطق النصوص عن أساليب خطباتهم، وهل كانوا يعمدون فيها إلى الأسلوب المرسل أو إلى المسجع وجدنا أنفسنا بإزاء تراث متهم لا يمكن الاعتماد عليه في الاستنتاج، لما قلنا مرارًا من أن حقبًا متطاولة تفصل بين العصر الذي دونت فيه تلك الخطب والآخر الذي قيلت فيه. ومع أن الكثرة الكثيرة من هذه الخطب منتحلة نلاحظ أن من نحلوها الجاهليين إنما قاسوها على أمثلة رويت لهم، فإذا لاحظنا أن أكثر مفاخراتهم ومنافراتهم روي مسجوعًا كان معنى ذلك أنه ثبت عند من نحلوا الجاهليين هذا المفاخرات والمنافرات أنهم كانوا يسجعون فيها. وتستطيع أن ترجع إلى منافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية وتحكيمهما لنفيل بن عبد العزى في تاريخ الطبري[4] فستجدها مسجوعة، ومثلها منافرة جرير بن عبد الله البجلي وخالد بن أرطاة الكلبي إلى الأقرع بن حابس، فقد رويت في شرح نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة، وهي

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٧٢.

(٢) السبال: مقدم اللحية. يهجوه بأنه ليس رئيسًا ولا خطيبًا.

(٣) البيان والتبيين ١/ ٣. المتفيهق: الذي يفتح بالكلام جوانب فمه ويملؤه به.

(٤) الطبري، القسم الأول ص١٠٩١.

مسجوعة[1]، ومثلها منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل المروية في كتاب الأغاني، فهي الأخرى مبنية على السجع[2]. ويجعل الجاحظ ذلك قاعدة عامة أو كالقاعدة العامة، فيقول: "إن ضمرة بن ضمرة وهرم بن قطبة والأقرع بن حابس ونفيل بن عبد العزى كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع، وكذلك ربيعة بن حذار[3]" كما يقوف في موضع آخر إنهم كانوا يستخدمون الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة، بينما كانوا يستعملون المنثور المرسل في خطب الصلح وسل السخيمة وعند المعاقدة والمعاهدة. وكأنهم عرفوا في الجاهلية لونين من الخطابة لونًا مسجوعًا ولونًا مرسلاً. ولا تظن أنهم في خاطبتهم المرسلة لم يكونوا يروون فقد كانوا يعمدون إلى ما يثير السامعين من كلم بليغ، حتى يؤثروا فيهم ويبلغوا ما يريدون من استمالتهم، يقول الجاحظ: "لم نرهم يستعملون مثل تدبيرهم في طوال القصائد وفي صنعة طوال الخطب، وكانوا إذا احتاجوا إلى الرأي في معاظم التدبير ومهمات الأمور ميثوه[4] في صدورهم وقيدوه على أنفسهم، فإذا قومه الثقاف، وأدخل الكير، وقام على الخلاص أبرزوه محككًا منقحًا ومصفي من الأدناس مهذبًا[5]".

ومن يقرأ الفقر القصار والمحاورات المختصرة التي بقيت من تراثهم، تلك التي يرويها الجاحظ، يشعر حقًا أنهم كانوا يبتغون التجويد في كلامهم، تارة بما يصوغونه فيه من سجع، وتارة أخرى بما يخرجونه فيه من استعارات وأخيلة. ودائمًا يعنون ببهاء اللفظ وقوته ونصاعته، كما يعنون بوضوح الحجة، وتصور أشعارهم جوانب من ذلك كقول لبيد لهرم بن قطبة حين احتكم إليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة[6]:

إنك قد أوتيت حكمًا معجبًا ... فطبق المفصل واغنم طيبًا

---

(١) النقائض ١/ ١٤١.

(٢) أغاني (طبعة الساسي) ١٥/ ٥١.

(٣) البيان والتبيين ١/ ٢٩٠.

(٤) ميثوه: ذللوه.

(٥) البيان والتبيين ٢/ ١٤.

(٦) البيان والتبيين ١/ ١٠٩.

وواضح أنه يقول له إنك قد أوتيت حكمًا فاصلاً قاطعًا يفصل بين الحق والباطل كما يفصل الجزار الحاذق مفصل العظمين. ومن ذلك قولهم فلان يفل المحز ويصيب المفصل ويضع الهناء مواضع النقب(١). والعبارة الأخيرة مستعارة من صنيع الحاذق حين يلم الجرب بإبله فيضع دواءه في مواضعه الدقيقة، يمثلون بذلك للمصيب الموجز في خطابته وبيانه، كما مثلوه في التعبيرين الأولين بالجزار الحاذق الذي يصيب عين الموضع من جزوره سواء في العظم أو في اللحم. وقد يشبهون كلامهم بالسهام المصمية، ومن ثم استخدموا كلمة مدره للشجاع والخطيب المفلق في الوقت نفسه، وأصل معناها المرامي، فاستعيرت من رامي السهام لرمي الكلام الذي يبلغ به ما يريد من غصابة خصمه والنكاية به، يقول زهير بن أبي سلمى(٢):

ومدره حربٍ حميها يتقـي بـه ... شديد الرجام باللسـان وباليـد

ونراهم يصفون خطباءهم بأنهم مصاقع ولسن، وافتخروا بذلك طويلاً على نحو ما نجد عند قيس بن عاصم المنقري يصف ما فيه وفي عشيرته بني منقر من الخطابة والفصاحة(٣):

إني امرؤ لا يعتري خلقـي ... دنـس يفنـده ولا أفـن(٤).

من "منقرٍ" في بيت مكرمـةٍ ... والأصل ينبت حوله الغصـن

خطباء حين يقـوم قائلهـم ... بيض الوجوه مصاقع لسـن

وقد حذروا طويلاً من شدة وقع اللسان، وقالوا إن جرح اللسان كجرح اليد وإنه عضب وقاطع كالسيف، يقول طرفة(٥):

بحسام سيفك أو لسانـك والـ ... ـكلم الأصيل كأرغـب الكلـم

(١) نفس المصدر ١/ ١٠٧. الهناء: القطران. والنقب: أول ما يبدو من الجرب في الإبل.

(٢) ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص٢٢٣.

(٣) البيان والتبيين ١/ ٢١٩.

(٤) يفند: ينقض ويضعف. الأفن: ضعف الرأي.

(٥) البيان والتبيين ١/ ١٥٦. أرغب: أوسع. الكلم بسكون اللام: الجرح.

obeikandi.com

ولعل ما يدل دلالة قاطعة على أنهم أحسوا بجمال ما يلفظ به خطباؤهم أننا نراهم يشبهون كلامهم بالثياب الموشاة وبالحلل والديباج وأشباه ذلك، يقول أبو قردودة الطائي في رثاء ابن عمار خطيب مذحج وقد مات مقتولاً[1]:

ومنطــقٍ خـــرق بالعواســـل لذ كوشي اليمنــة المراحــل[2].

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على أن الخطابة كانت مزدهرة في الجاهلية، فقد كانوا على حظ كبير من الحرية، وكانوا يخطبون في كل موقف: في المفاخرات وفي الدعوة إلى السلم أو الحرب وفي النصح والإرشاد وفي الصهر والزواج. وابتغوا دائمًا في كلامهم أن يؤثر في نفوس سامعيهم بما حققوا له من ضروب ببيان وبلاغة.

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٤٩.

(٢) العوامل: الرماح. المراحل: جمع مرالح وهو ما نقش فيه تصاوير الرحال.

obeikandl.com

٤

سجع الكهان

كانت في الجاهلية طائفة تزعم أنها تطلع على الغيب وتعرف ما يأتي به الغد بما يلقي إليها توابعها من الجن، وكان واحدها يسمى كاهنًا كما يسمى تابعه الذي يوحى إليه باسم "الرئي". وأكثرهم كان يخدم بيوت أصنامهم وأوثانهم، فكانت لهم قداسة دينية، وكانوا يلجأون إليهم في كل شئونهم، وقد يتخذونهم حكامًا في خصوماتهم ومنافراتهم على نحو ما كان من منافرة هاشم ابن عبد مناف وأمية بن عبد شمس واحتكامها إلى الكاهن الخزاعي، وقد نفر هاشمًا على أمية[١]. وكانوا يستشيرونهم ويصدرون عن آرائهم في كثير من شئونهم كوفاء زوجة أو قتل رجل أو نحر ناقة[٢]، أو قعود عن نصرة أحلاف[٣]، أو نهوض لحرب، ففي أخبار بني أسد أن حجرًا أبا امرئ القيس رق لهم، فبعث في إثرهم فأقبلوا حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم، وهو عوف بن ربيعة، فقال لبني أسدك "يا عبادي! قالوا لبيك ربنا، قال: من الملك الأصهب، الغلاب غير المغلب، في الإبل كأنها الربرب[٤]، لا يعلق رأسه الصخبة، هذا دمه ينثعب[٥]، وهذا غدًا أول من يسلب، قالوا: من هو يا ربنا؟ قال: لولا أن تجيش نفس جاشية، لأخبرتكم أنه حجر ضاحية. فركبوا كل صعوب وذلول فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حجر فهجموا على قبته" وقتلوه[٦]. وكثيرًا ما كانوا ينذرون قبائلهم بوقوع غزو غير منتظر[١]، كما كانوا كثيرًا ما يفسرون رؤاهم وأحلامهم[٧]

---

(١) السيرة الحلبية ١/ ٤.

(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١/ ١١٨.

(٣) أغاني ١١/ ١٤٠.

(٤) الربرب: القطيع من الظباء.

(٥) ينثعب: يسيل.

(٦) أغاني ٩/ ٨٤.

(٧) السيرة النبوية ١/ ١٥ وما بعدها.

obeikandi.com

فمنزلة كهانهم في الجاهلية كانت كبيرة، إذ كانوا يعتقدون أنه يوحي إليهم، ولعل ذلك ما جعل نفوذ الكاهن يتجاوز قبيلته إلى كثير من القبائل التي تجاورها، ومن ثم كان العرب يقصدون كثيرين منهم من مناطق بعيدة، ومما يلاحظ أنهم كانوا يكثرون في اليمن وفي بيوت عبادتها الوثنية، وخاصة من يتعمقون في القدم، ولعل في ذلك ما يدل على الصلة القديمة بين وثنية عرب الجنوب وعرب الشمال. وتلقانا في كتب التاريخ والأدب أسماء كثيرين منهم وقد يبالغ القصاص، فيرسمون لبعضهم صورًا خيالية، فمن ذلك أن شق بن الصعب كان شق إنسان أو شطره فله عين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة، وأن سطيح بن ربيعة الذئبي لم يكن فيه عظم سوى جمجمته وأن وجهه كان في صدره ولم يكن له عنق[2]، وربما كان أحدب. ومن كهانهم في أواخر العصر الجاهلي سواء بن قارب الدوسي وقد أدرك الإسلام ودخل فيه[3]، ومنهم المأمور الحارثي، كاهن بني الحارث بن كعب[4]، وخنافر الحميري، وكان يقول إنه أسلم بمشورة تابعه "شصار[5]". وأكهنهم عزى سلمة، يقول الجاحظ: "أكهن العرب وأسجعهم سلمة بن أبي حية وهو الذي يقال له عزى سلمة[6]". ومن قوله[7]: "والأرض والسماء، والعقاب والصفعاء، واقعة ببقعاء، لقد نفر المجد بني الشعراء للمجد والسناء[8]". ونجد بجانب هؤلاء الكهان جماعة من الكاهنات، وربما كن في الأصل من النساء اللائي يهبن أنفسهن للآلهة ومعابدها، ومن أشهرهن الشعثاء[9] وكاهنة ذي الخلصة[10] ولكاهنة السعدية[11] والزرقاء[1] بنت زهير والغيطلة القرشية[2] وزبراء كاهنة بني رئام،

---

(١) الأمالي للقالي ١/ ١٢٦ والسيرة النبوية ١/ ٤٣، ٢٢١.

(٢) عجائب المخلوقات للقزويني ١/ ١٧١.

(٣) السيرة النبوية ١/ ٢٣٣.

(٤) الأمالي ١/ ٢٧٦ واسمه فيه المأمون، وأنظر ٣/ ١٥١ والأغاني ١٥/ ٧٠.

(٥) الأمالي ١/ ١٣٣.

(٦) البيان والتبيين ١/ ٣٥٨.

(٧) نفس المصدر ١/ ٢٩٠.

(٨) الصقعاء: الشمس، بقعاء: ماء أو موضع. نفر: حكم بالغلبة. بنو الشعراء: عشيرة من فزارة. النساء: الرفعة.

(٩) مجمع الأمثال للميداني ١/ ٩١.

(١٠) نفس المصدر ٢/ ٢٢٣.

(١١) نفس المصدر ٢/ ٥٤.

ويروي أنها أنذرتهم غارة عليهم فقالت: "واللوح الخافق والليل الغاسق والصباح الشارق والنجم الطارق والمزن الوادق، إن شجر الوادي ليأدو ختلا، ويحرق أنيابًا عصلا، وإن صخر الطود لينذر ثكلا، لا تجدون عنه معلا(٣)".

ونحن لا نطمئن إلى ما يروي في كتب التاريخ والأدب من أقوال جرت على ألسنة هؤلاء الكهان والكاهنات، فإن بعد المسافة بين عصور التدوين والعصر الجاهلي يجعلنا نتهم مثل هذه الأقوال، إذ من الصعب أن تروي بنصها وقد مضى عليها نحو قرنين من الزمان. وإنما استشهدنا ببعض منها لندل على أنه ثبت في أذهان من تحدثوا عن الكهان والكاهنات في الجاهلية أنهم كانوا يعتمدون على السجع في كلامهم، ولذلك حين أجروا ألسنتهم بالكلام جعلوا مسجوعًا على شاكلة ما رويناه من أقوالهم. ومعنى ذلك أنه وُجد في العصر الجاهلي سجع كان يقوله الكهان، وقد اختلط الأمر على بعض قريش في أول نزول الذكر الحكيم، فقرنوه بسجع كهنهم ورد عليهم القرآن الكريم بمثل قوله جل وعز: (ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون) وقال سبحانه وتعالى: (فذكر، فما أنت بنعمة ربك بكاهن) وقال: (إنه لقول رسول كريم، وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون).

ومما يدل على أن كهنتهم كانوا يسجعون، بل كانوا لا يتكلمون إلا بالسجع، الحديث المروي عن أبي هريرة، فقد حدث أنه "اقتتلت امرأتان من هذيل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر، فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقضى رسول الله أن دية جنينها غرة: عبد أو وليدة، وقضي بدية المرأة على عاقلتها(٤)... فقال حمل بن النابغة الهذلي: يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل(٥)، فمثل ذلك يُطل(٦)، فقال رسول الله صلى الله

---

(١) أغاني (دار الكتب) ١٣/ ٨١.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٢٢١.

(٣) اللوح هنا: الريح. الوادقك الممطر. يأدو: يختل. يحرق أنيابًا عصلا: كناية عن الغضب والشر. عصلا: معوجة. الطود: الجبل. المعل: اللجأ. أنظر الأمالي ١/ ١٢٦.

(٤) عاقلة المرأة: عصبتها الذين يتضامنون معها في دفع الدية.

(٥) استهل: صاح.

(٦) يطل يهدر دمه.

عليه وسلم: إنما هذا من إخوان الكهان، من أجل سجعه الذي سجع[1]". ويقول الجاحظ: "كان حازي (كاهن) جهينة وشق وسطيح وعزى سلمة وأشباههم يتكهنون ويحكمون بالأسجاع[2]".

وإذا صح أن ما يروى في كتب التاريخ والأدب من سجع الكهان تقليد دقيق لما كانوا يأتون به من هذا السجع لاحظنا أنهم لم يكونوا يسجعون فحسب، بل كانوا يعمدون أيضًا إلى ألفاظ غامضة مبهمة، حتى يتركوا فسحة لدى السامعين كي يؤول كل منهم ما يسمعه حسب فهمه وظروفه. ومن ثم دخل الرمز في كثير من أقوالهم، إذ يومئون إلى ما يريدون إيماء، وقلما صرحوا أو وضحوا، بل دائمًا يأتون المعاني من بعيد، بل قل إنهم كانا لا يحبون أن يصوروا في وضوح معنى، ويتخذوا له أشباحًا واضحة من اللفظ تدل عليه، لأن ذلك يتعارض مع تنبئهم الذي يقوم على الإبهام والوهم واختيار الألفاظ التي تخدع السامع وجوهًا من الخدع، ومن ثم كان من أهم ما يميز أسجاعهم عدم وضوح الدلالة وأن يكثر فيها الاختلاف والتأويل.

وليس هذا كل ما يلاحظ على السجع الذي يضاف إليهم، فإنه يلاحظ عليه أيضًا كثرة الأقسام والإيمان بالكواكب والنجوم والرياح والسحب والليل الداجي والصبح المنير والأشجار والبحار وكثير من الطير. وفي ذلك ما يدل على اعتقادهم في هذه الأشياء وأن بها قوى وأرواحًا خفية، ومن أجل ذلك يحلفون بها، ليؤكدوا كلامهم وليبلغوا ما يريدون من التأثير في نفوس هؤلاء الوثنيين.

وهذا السجع الديني كان يقابله- كما قدمنا- سجع آخر في خطابتهم، بل في كلامهم وأمثالهم التي دارت بينهم. ولعل في ذلك كله ما يدل على أن الجاهليين عنوا بنثرهم كما عنوا بشعرهم، فقد ذهبوا يحاولون تحقيق قيم صوتية وتصويرية مختلفة فيه، تكفل له جمال الصياغة وروعية الأداء.

(١) صحيح مسلم (طبعة الآستانة) ٥/ ١١٠ وأنظر موطأ مالك (طبع حجر بالقاهرة) ٢/ ١٩٢.

(٢) البيان والتبيين ١/ ٢٨٩ وما بعدها.

خاتمة

خلاصة

حاولت في الصحف السابقة أن أؤرخ للأدب العربي في العصر الجاهلي، فتحدثت عن صفة الجزيرة العربية وتاريخها القديم، وكيف أنها كانت مهد الساميين، إذ خرجوا منها موجة في إثر موجة، وكانت موجة العرب الجنوبيين الذين يمموا حوض المحيط الهندي آخر موجاتهم، وكانت تفصلهم من عرب الشمال صحراوات واسعة جعلتهم يستقلون عنهم في لغتهم وخصائصها النحوية، كما جعلتهم يستقلون عنهم في حضارتهم. ومع ذلك فقد ظلت قائمة بين الجنوبيين والشماليين أو القحطانيين والعدنانيين صلات اقتصادية ودينية وسياسية أتاحت لهم ضروبًا من التداخل والتشابك. واستطاع الشماليون أن ينفذوا في آخر الأمر إلى صورة خطهم العربي المعروف.

ومضيت أتحدث عن العصر الجاهلي وحددته بنحو قرن ونصف قبل الإسلام، أما ما قبل ذلك فهو الجاهلية الأولى، وكل ما بأيدينا من شعر قديم إنما يرجع إلى العصر الجاهلي أو الجاهلية الثانية. ونحن نفاجأ في أول هذا العصر باكتمال الخط العربي، كما نفاجأ بهذا الشعر الناضج الذي يضاف إلى الجاهليين. وأخبارهم واضحة تمام الوضوح، فقد كانت تقوم في الشمال إمارة الغساسنة والمناذرة وكندة، بينما كانت تتجمع قلوب العرب حول مكة، فهي بيت كعبتهم وعبادتهم الوثنية، وهي مركز تجارتهم وقوافلهم التي تربط بين حوضي المحيط الهندي والبحر المتوسط، ووراءها قبائلهم البدوية، وكانت تنتظم قسمين كبيرين من عرب الشمال العدنانيين وعرب الجنوب القحطانيين الذين هاجروا من ديارهم إلى ديار الشماليين منذ أزمان بعيدة. وكانت كل قبيلة وحدة قائمة بنفسها، وهي وحدة دعمتها وشائج متينة من العصبية. وكان لكل قبيلة سيد ومجلس يضم شيوخ عشائرها، وواجبات السيد دائمًا أكبر من حقوقه، ومن ورائه أفراد قبيلته متضامنين أوثق ما يكون التضامن، وخاصة حين يُطلب ثأر أو تنشب حرب، وقد تحولوا بجزيرتهم إلى ما يشبه ميدانًا حربيًا كبيرًا، ففي كل مكان عراك وقتال وفي كل مكان دماء تسيل. ولهم حروب مشهورة سجلها علماء اللغة والأدب في العصر العباسي كحرب البسوس وحرب داحس والغبراء.

obeikandl.com

وانتقلت من ذلك أبحث في حياتهم وأحوالهم الاجتماعية ولاحظت أن مجتمع القبيلة كان يتألف من ثلاث طبقات، هي أبناؤها ومواليها وعبيدها، وكان أهم شيء يشد من بنيان هذا المجتمع حرصهم على الشرف وما سموه المروءة، إذ كان كل منهم يحرص على البذل والشجاعة والوفاء وحماية الجار وإباء الضيم، وتخللت ذلك آفات، أهمها: الخمر والقمار واستباحة النساء. وقد تأخذ هذه الآفات عند بعض الشباب أمثال طرفة شكل فتوة جامحة. ومن المؤكد أنه كان للمرأة الحرة عندهم منزلة ريمة. ولم تكن معيشتهم واحدة، فقد كانت الزراعة منتشرة في الجنوب والشرق وواحات الحجاز، وكان أهل مكة يعيشون على التجارة، على حين كان البدو يعيشون على رعي الأغنام والأنعام وصيد الحيوان، وكان بينهم سادة يملكون مئات الإبل وصعاليك لا يملكون شيئًا. ومع أنهم كانوا على صلة بالحضارات المجاورة كانوا لا يزالون أقرب إلى طور البداوة، وكان علم الأنساب أهم علمهم، ولم يكن لهم وراءه إلا معارف محدودة تقوم على التجربة الناقصة كبعض معارفهم الطبية والفلكية. وكانت كثرتهم وثنية تتعبد لآلهة وأصنام وأوثان كثيرة، وكانت الكعبة في مكة أكبر معابدهم، وكانوا يحجون إليها في أشهر معلومات. على أن نفرًا منهم شكوا في أواخر هذا العصر في دينهم الوثنى والتمسوا دين إبراهيم ويسمون المتحنفة والحنفاء وكأنما كانوا إرهاصًا لظهور الإسلام والدعوة المحمدية. وكانت النصرانية في أثناء ذلك تنتشر في القبائل المحاذية للشام والعراق بينما كان كثير من اليهود ينزلون في واحات الحجاز وفي اليمن، وتعربت كثرتهم إلا أن العرب ظلوا يزدرونهم وينفرون من دينهم.

ولما تم لي بيان هذه الجوانب أخذت أبحث في اللغة العربية وعناصرها السامية القديمة، ووقفت عند أقدم لهجاتها المثبتة في النقوش، وهي الثمودية واللحيانية والصفوية، تلك التي كتبت نقوشها بالخط المسند الجنوبي، ثم اللهجة النبطية، وكانت نقوشها تكتب بالخط الآرامي، ومنه نشأ تطور الخط العربي في الحجاز. وتختلف هذه اللهجات الأربع اختلافات كثيرة عن لغة الجاهليين، وإن كان من المؤكد أن اللهجة النبطية أقربها جميعًا إليها، وقد أخذت في الدثور منذ القرن الثالث للميلاد، بينما أخذت تحل محلها مقدمات الفصحى بحيث لا نصل إلى نهاية القرن الخامس وأوائل السادس الميلادي حتى تتكامل تكاملاً تامًا وتعم بين القبائل النجدية وفي الحيرة وبين الغساسنة، وتصبح هي اللغة العامة المتداولة بين الشعراء. وكانت هناك لهجات قبلية كثيرة ولكن الفصحى

ظفرت بها جميعًا في المجال الأدبي، بحيث كان الشعراء في كل قبيلة ينظمون بها مرتفعين عن لهجاتهم القبلية أو المحلية. وقد حار المستشرقون طويلاً في معرفة اللهجة التي سادت بين القبائل في الشمال وأصبحت اللهجة الأدبية الشائعة على كل لسان، وأثبت أنها لهجة قريش، إذ تآزرت بواعث دينية واقتصادية وسياسية على أن تتم لها هذه السيادة منذ أوائل العصر الجاهلي.

وبحثت عقب ذلك في رواية الشعر الجاهلي وتدوينه، مبينًا كيف تضافرت جهود القبائل العربية ورجالاتها على حمله جيلاً بعد جيل، حتى تسلمه منهم طبقة من الرواة المحترفين في البصرة والكوفة، وكان بينهم الثقة الذي لا يرتفع شك إلى روايته مثل المفضل الضبي والأصمعي والمتهم الذي يجمع العلماء على إبطال روايته مثل حماد وخلف الأحمر. وفي تضاعيف ذلك كان الشعر الجاهلي يدون، بحيث لا نصل إلى أوائل القرن الثالث للهجرة حتى يتكامل تدوينه. والي لا شك فيه أنه دخله انتحال كثير، ولم يكن القدماء غائبين عن ذلك، فقد نصوا على كل ما شكوا فيه من رواة ومن شعر، حتى يحيطوه بسياج من التوثيق، أو بعبارة أدق حتى يحيطوا الصحيح منه. ومنذ أواسط القرن الماضي يلم المستشرقون بالمشكلة، واندفع منهم مرجليوث في هذا القرن يزعم أن الشعر الجاهلي جميعه منحول على أهله، وهب كثير من المستشرقين يردون عليه، وممن ذهب مذهبه في تعميم الحكم على الشعر الجاهلي بالانتحال والوضع طه حسين، وإن لم يتسع بحكمه اتساع ملجليوث، وعلى هدى من آراء طه حسين ومرجليوث جميعًا تناول القضية بلاشير في الجزء الأول من كتابه "تاريخ الأدب العربي". وقد ناقشت آراءه وآراء غيره من الباحثين، وانتهيت إلى أن هناك شعرًا منتحلاً كثيرًا لا سبيل إلى الثقة به، ولكن بجانبه شعر صحيح رواه الثقات وعلى رأسهم المفضل الضبي والأصمعي، وهو الذي نستند عليه في دراسة الأدب الجاهلي، دراسة نخضعه فيها لبحث داخلي دقيق. ومن أجل ذلك وقفت عند مصادره لأدل على قيمتها ومدى توثقها.

ومضيت أبحث في خصائص الشعر الجاهلي، فتحدثت عن نشأته وأنها انطمرت في ثنايا الجاهلية الأولى، بحيث لا نجد منذ أوائل العصر الجاهلي أو الجاهلية الثانية شيئًا نستبين منه طفولته، إنما نجد هذه الصورة النموذجية المعروفة للقصيدة الجاهلية، وهي صورة شاعت بين القبائل جميعًا، وكان للقبائل المضرية منها بالذات الحظ الأوفر. ووقفت عند موضوعاته،

obeikandi.com

ولاحظت فيها بقايا من الصلة القديمة بين شعرهم والأناشيد الدينية التي كانوا يرتلونها لآلهتهم، كما وقفت عند معانيه ولاحظت أنها حسية تغلب عليها السطحية والتقريرية والسرعة السريعة، أما ألفاظه فكاملة الصياغة حافلة بالصقل والتجويد، زاخرة بقيم موسيقية وتصويرية كثيرة.

وأفردت بعد ذلك فصولاً لأربعة من الشعراء، يعدهم النقاد السابقين المجلين في العصر الجاهلي، وهم امرؤ القيس والنابغة وزهير الأعشى. واعتمدت في دراسة الثلاثة الأولين على رواية الأصمعي لدواوينهم، وبدأت بامرئ القيس، فتحدثت عن حياته وكيف دخلتها الأسطورة، ثم تحدثت عن ديوانه، وبحثته بحثًا داخليًا، فإذا أكثر ما يضاف إليه تشوبه الريبة بشهادة الأصمعي، واستظهرت أن تكون المعلقة وتاليتها في ديوانه صحيحتين في جملتها ومثلهما القصيدتان الحادية عشرة والسابعة والعشرون لأنهما من رواية أبي عمرو بن العلاء، الثبة الصدوق. ولا يبقى له بعد ذلك إلا مقطوعات قصيرة تعرض فيها لمن أجاروه ومن رفضوا جواره. واستطعت من خلال هذه النصوص القليلة أن أوزع شعره على دورتين في حياته، دورة غلب عليه فيها اللهو والعبث، ودورة ثانية غلب عليه فيها الحزن والإحساس بسوء المصير. وأخيرًا صورت خصائصه الفنية مبينًا منزلته في الشعر الجاهلي وكيف عد أباه غير منازع ولا مدافع.

وبحثت بعده النابغة الذبياني، فتحدثت عن حياته، وكيف أمضاها في بلاط المناذرة والغساسنة سفيرًا لقومه الذبيانيين، وكيف كان يحتل بين الشعراء مكانة مرموقة في داخل الجزيرة وفي مكة وسوق عُكاظ. وبحثت في ديوانه على ضوء رواية الأصمعي، وأنكرت منها خمس قصائد على رأسها قصيدته في المتجردة. وشعره من هذه الناحية أوثق من شعر امرئ القيس لأنه أقرب منه عهدًا، ولم تدخل الأسطورة في حياته ولا في شعره. ووقفت عندما اشتهر به من مديح واعتذار، مبينًا قدرته على الوصف ورصف الموضوعات وتنسيق المعاني وابتكار الصور والأخيلة، يهديه في ذلك كله ذوق مهذب، هذبته الحضارة التي نعم بها في الحيرة وعند الغساسنة، فإذا هو صاحب حس دقيق وشعور رقيق.

وكان يعاصره زهير بن أبي سلمى المزني، وقد نشأ في بني مرة الذبيانيين بحيث عد فيهم، وتصادف أن كان خاله شاعرًا وأن كان زوج أمه أوس بن حجر من كبار الشعراء الجاهليين، فحمل عنهما جميعًا الشعر، وعاش له يتعلمه ويعلمه شعراء من بيته ومن غير بيته، بحيث أصبح

أستاذًا لمدرسة عرفت به. وقد وقفت عند ديوانه وأسقطت منه ما أسقطه الأصمعي. ولاحظت أن الشعر عنده انتهي إلى صورة مثالية من التنقيح والتحبير في قوالبه وصيغه تحبيرًا لاحظه القدماء إزاء بعض مطولاته، فقالوا إنه يصنع القصيدة في حول كامل وإن له سبع حوليات. وهو يضم إلى هذا التحبير عناية بعيدة بالتشبيهات والاستعارات، بحيث يُعد حقًا شاعر التصوير في العصر الجاهلي وكان يكثر من الحكم ومن الدعوة إلى الخير والسلام، فلا نغلو إذا قلنا إن شعره يعد صورة رفيعة للخير والحق والجمال.

وانتقلت إلى الأعشى، فتحدثت عن حياته التي ان ينفقها متنقلاً في أنحاء الجزيرة، ثم عرضت لديوانه، واضطررت لبحثه من خلال رواية يكثر فيها الانتحال، وتصادف أن كان رواية شعره مسيحيًا، فنحله كثيرًا من الأفكار المسيحية، وتداول شعره القصاص والوعاظ المسلمون، فأضافوا إليه أشعارًا كثيرة، لغرض العظة والاعتبار. كما أضاف إليه الرواة غير قصيدة، كقصيدته رقم ٢٤ التي تحكي قصة وفاء السموأل. وجعلنا هذا كله نشك في كثير من قصائده وأشعاره، وإذا بنا نرفض أكثرها، ولا نبقي له إلا على نحو عشرين قصيدة. وقد لاحظت عليه غلوا في المديح وتأثرًا دقيقًا بالحضارة التي عاصرته في الحيرة، حتى ليقترب شعره من شعر العباسيين لا في معانيه فحسب، بل أيضًا في سهولة ألفاظه وخفة أوزانه. ونفس الموضوعين الأساسيين الذين يدور فيهما شعره لا يختلفان في شيء عما نقرؤه للعباسيين ونقصد وصفه للخمر وغزله وتدلهه فيه وما قد يلاحظ عنده من المبالغة المسرفة وكثرة التضمين.

وخرجت من هؤلاء الشعراء المبرزين إلى دراسة طوائف من الشعراء اتفقوا في اتجاه من اتجاهات الحياة الجاهلية، فدرست أولاً الفرسان وما يصورون في أشعارهم من بطولتهم ومثاليتهم الخلقية الرفيعة. ثم درست الصعاليك وما يصورونه في أشعارهم من غاراتهم وما نحسه عند نفر منهم من تسام وعون للفقراء والمعوزين. ثم بحثت في شعراء اليهود مبينًا كثرة ما نحل عليهم. ووقفت عند النصارى من الشعراء أمثال عدى بن زيد العبادي، ولاحظت أن شعرًا كثيرًا زيف عليه. ولا نبالغ إذا قلنا إن أكثر ما يضاف إلى أمية بن أبي الصلمت، إن لم يكن كله، موضوع منتحل. وتدور الأشعار المضافة إليه في موضوعين أساسيين، هما نشأة الكون وما يتصل بها من خلق السموات والأرض، والموت أو الفناء وما يعقبه من العذاب والثواب.

ولما فرغت من بحث الشعر الجاهلي وشعرائه انتقلت أبحث في النثر الجاهلي، فلاحظت أن الجاهليين لم يعرفوا الرسائل الأدبية المحبرة، ولكنهم عرفوا القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهان. ومن الحق أنهم لم يدونوا شيئًا من قصصهم، غير أن ما أضافه العباسيون إليهم يصور غير قيل من روحه وطبيعته. وعرضت لأمثالهم وما كان من ازدهار الخطابة بينهم واصطلاحهم فيها على طائفة من السنن والتقاليد. وكان كهانهم يحاولون التأثير البالغ في نفوس سامعيهم بما يسوقون إليهم من أسجاع وألفاظ غريبة وأقسام وأيمان موهمة. وكل ذلك يؤكد أن الجاهليين حاولوا في نثرهم ما حاولوه في شعرهم من روعة الأداء. حتى يستأثروا بقلوب سامعيهم ويخلبوا عقولهم وألبابهم.

تعليق

واضح أن الصورة السابقة للأدب الجاهلي إنما تعني بإبراز خطوطه الأساسية، ومن المحقق أن هناك خطوطًا صغرى لا يبرزها البحث، فنحن مثلاً إنما تحدثنا عن الشعراء المجلين، وتركنا كثيرين لم نكد نلم بهم إلا بعض اقتباسات من أشعارهم نثرناها نثرًا في بعض الفصول. وإنما تركنا تفصيل الحديث عنهم، إما لأن ما وصلنا من أشعارهم قليل لا يسوى صورة أدبية تامة لهم، وإما لأن الانتحال باد في كثير مما يضاف إليهم من أشعار وأخبار. ولنقف قليلاً عند أصحاب المعلقات الذين لم نفردهم بالدرس، وهم عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعبيدة بن الأبرص وطرفة وعنترة ولبيد، فأما عمرو والحارث فإنهما مقلان، وقد تشكك ابن سلام في شعر عبيد بن الأبرص ولم يصحح له سوى المعلقة وقال إن شعره مضطرب ذاهب[1]. أما طرفة فيقول ابن سلام إنه أشعر الناس واحدة[2]، وهي قوله:

لخولة أطلال ببرقــة ثهمــد وقفت بها أبكي وأبكي إلى الغــد[3].

(١) ابن سلام ص١١٦.

(٢) ابن سلام ص١١٥.

(٣) الرواية المشهورة للشطر الثاني في البيت: "تلوح كباقي الوشم في ظاهرة اليد".

obeikandi.com

وفيها أبدع في وصف ناقته، إذ لم يترك فيها صغيرة ولا كبيرة إلا رسمها، وكأنه يريد أن ينحت لها تمثالاً، لا يغادر ذاكرة الجاهليين. والتصوير والحكمة جميعًا يتداخلان في شعره، وهو من هذه الناحية يشبه النابغة وزهيرًا، على أنهما يتقدمانه ويفضلانه. وأيضًا فإنه مقل والأسطورة تجرى في أخباره، ولذلك كله لم نفرده بالبحث. وأما عنترة فقد تحدثنا عنه في تضاعيف كلامنا عن الفرسان. ولبيد مع أنه الحق الجاهلية عاش طويلاً في الإسلام. فأولى أن يدرس في المخضرمين.

وقل ذلك نفسه فيمن تركناهم من شعراء الجاهلية غير أصحاب المعلقات، فقد تركنا أوس بن حجر لأن فنه يندمج في فن تلميذه زهير، ولأن الرواة خلطوا بين أشعاره وأشعار ابنه شريح[١] وعبيد[٢] بن الأبرص. ونرى ابن سلام يسلك معه في طبقته- وهي الثانية- بشر بن أبي خازم الأسدى وهو مقل، وفي شعره مصنوع كثير[٣]. وجميع الطبقة الثالثة عند ابن سلام من المخضرمين، أما الطبقة الرابعة فسلك فيها طرفة وعبيدًا ومر رأينا في أشعارهما. ونراه يضم إليهما عدى بن زيد لعبادي، وأسلفنا الحديث عنه بين أصحاب الديانات السماوية، كما يضم علقمة ابن عبدة ويذكر له ثلاث قصائد جياد، ويقول: لا شيء له بعدهن يذكر[٤]. وهو يشتهر بإحسانه لوصف الظليم ونعامته[٥]. وممن ذكرهم ابن سلام في الطبقة الخامسة الأسود بن يعفر النهشلي التميمي، ويقول بن سلام: "له واحدة طويلة رائعة لاحقة بأجود الشعر لو كان شفعها بمثلها قدمناه على مرتبته[٦]. أما الطبقة السادسة فنظم فيها عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنترة، وقد عرضنا لهم بالحديث فيما أسلفنا. وجعل الطبقة السابعة لأربعة مقلين هم حصين ابن الحمام المرى والملتمس (خال طرفة) والمسيب بن علس (خال الأعشى) وسلامة بن جندل السعدي التميمي. أما الطبقة الثامنة

---

(١) الحيوان ٦/ ٢٧٩.

(٢) ابن سلام ص٧٦-٧٧.

(٣) الحيوان ٦/ ٢٧٦.

(٤) ابن سلام ص١١٧.

(٥) الحيوان ٤/ ٣٦٦.

(٦) ابن سلام ص١٢٣.

obeikandi.com

فنظم فيها عمرو بن قميئة (عم طرفة) وعوف بن عطية بن الخرع، وهما مقلان. جعل في الطبقة التاسعة الحادرة أو الحويدرة، وقصيدته[1]:

بكرت سميــة بكــرة فتمتــع　　　وغدت غدو مفارقٍ لــم يربــع

من جيد الشعر ومختاره، وليس له وراءها شعر يذكر. أما الطبقة العاشرة فجميعها مخضرمون أو إسلاميون. وأفرد لأصحاب امرائي فصلاً، ولكنه لم يسلك بينهم جاهليًا. وتحدث عقب ذل عن شعراء القرى العربية، وأهمهم أمية ابن أبي الصلت شاعر الطائف، ومر بنا في حديثنا عن أصحاب الديانات كثرة ما وضع عليه من أشعار. وفي قبيلة عبد القيس بالبحرين شعر جيد، وربما كان خير شعرائها المثقب العبدي المعاصر للنعمان بن المنذر، وهو يسلك في المقلين.

وليس وراء هؤلاء الذين ذكرهم ابن سلام شعراء فيهم غناء، سوى الصعاليك، وقد أفردناهم بالحديث. ومما لا شك فيه أن الأسطورة تغلب على أخبارهم، لاندراج كثيرين منهم في القصص الشعبي، ويشبههم في هذا الجانب حاتم الطائي الذي طالما تحدث الرواة عن كرمه. وواضح من ذلك كله أننا لم نتسع في الترجمة لشعراء الجاهلية، لقلة ما بأيدينا من شعر وثيق لهم يقفنا على خصائصهم، ومن ثم اكتفينا بالترجمة للطبقة الأولى منهم تلك التي عنى الرواة بدواوينها وأجمعوا على تقديمها وأنها تباري في حسن الديباجة ورونق الكلام.

---

(١) المفضليات رقم ٨ يربع بالمكان يقيم.